# حاجتنا إلى " تربية العقل " عند " ابن حبان "

## من الرجل ؟

هـو أبو حاتم محمد بن حبان البستى ، الإمام العلامة ، الفاضل ، المتقن . كان مكثرا مـن الحـديث والشـيوخ ، عالما بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز غيره عنه . ومن استقرأ كتاباته ، أدرك من غير شك أنه كان طويل الباع ، واسع الأفق الثقافى .

طـاف العديـد مـن البلدان ، من كل ، يأخذ من أعلم علمائها : من وراء النهر حتى الإسـكندرية بمصر . قال عنه الحاكم أبو عبد الله الحافظ : " أبو حاتم البستى القاضى ، كان مـن أوعـية العلـم فى اللغة والفقه والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال ، صنف له من التصـانيف فى الحديث ما لم يسبق إليه ، وولى القضاء بسمرقند وغيرها من المدن ، ثم ورد نيسابور عام ٣٣٤ هـ ، وكانت وفاته عام ٣٥٤ هـ ، وفى شهر شوال .

ومـن بـين تصـانيفه العديـد ، كتاب ( الهداية إلى علم السنن ) ، قصد فيه إظهار الصـناعتين اللتين هما صناعة الحديث ، والفقه ، يذكر حديثا ويترجم له ، ثم يذكر من ينفرد بـذلك الحـديث ، ومن أى بلد هو ، ثم يذكر كل اسم فى إسناده من الصحابة إلى شيخه بما يعـرف من نسبه ومولده وموته وكنيته وقبيلته وفضله وتيقظه ، ثم يذكر ما فى ذلك الحديث مـن الفقه والحكمة ، فإن عارضه خبر ذكره وجمع بينهما ، وأن تضاد لفظه فى خبر آخر ، تلطف للجمع بينهما حتى يعلم ما فى كل خبر من صناعة الفقه والحديث معا .

وهـناك كتاب آخر لابد أن يشد انتباه المسلم المعاصر لتصديه لقضية مهمة وخطيرة من قضايا القرن الحادى والعشرين ، فما بالنا والكتاب من مؤلفات القرن الرابع الهجرى ؟ أما هذا الكتاب ، فهو كتاب ( روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ) ، والذى قام بتحقيقه وتصحيحه ، المحقـق المعـروف محمد محيى الدين عبد الحميد ، وكل من محمد عبد الرزاق حمزة الذى كـان مدرسـا بالمسـجد الحرام ، ومحمد حامد الفقى الذى كان رئيسا لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ، وطبع فى السنة المحمدية بالقاهرة عام ١٣٦٨ هـ الموافق عام ١٩٤٩م ، وهـو الـذى نحاول فى هذه الدراسة أن نتوقف عنده ، تحليلا لأفكاره ، وإبرازا لاتجاهاته ، وتعميقا لفلسفته .

## أهمية البحث فى ( العقل ) :

والملاحظة التى لا تخطئها عين ، هى ذلك الاحتفال الكبير من ابن حبان بالعقل ، مما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ، أن الحضارة التى تقوم على احترام العقل وحسن استثمار إمكاناته وتوظيفه وإزالة الحواجز التى تحول بينه وبين الانطلاق إلى آفاق البحث الحر والتفكير الناقد ، إلا ما نهى عنه الله عز وجل ورسوله ﷺ ، إنما هى حضارة رشيدة ، لديها من مقومات القوة ما يجعلها لا تخشى إطلاق سراح العقل ، بل ترى فى ذلك إظهارا لقوتها ، وقدحا لزناد القدرات المعرفية التى وهبها الله لأبنائها .

وكان هذا بالفعل حال الحضارة الإسلامية مما يبدد ذلك الوهم الشائع عند البعض من المعاندين للدين من تعارض بين العقل والشرع ، ففى هذه الحضارة ، تعانق طرفاها : العقل والشرع ، فكانت عظمتها، وكانت إنجازاتها التى ستظل محيرة للباحثين .

ولقد فزع ابن حبان مما رآه فى زمنه من بداية ظهور بعض المظاهر المناقضة للعقل ، فأراد أن ينبه إلى ذلك ، ويضع الأسس والمبادئ التى تكفل للممارسة العقلية طريقها المستقيم ، لوعيه بدور هذه الهبة الإلهية الجبارة فى رفع شأن المسلمين إذا أعطوها ما تستحقه من عناية .

إنك إذ تقرأ كلمات ابن حبان التى ينعى فيها بعض مظاهر اللاعقل فى عصره ، تأخذك الحسرة ، إذ أن عصره هو أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، ونشير إليه دائما بآيات التقدير والإعجاب ، ونعدد مظاهر التقدم والتطور العقلية فيه ، فماذا كان الرجل سيقول ، لو قدر له أن يعيش فى أواخر عصر المماليك مثلا ، وأواخر العهد العثمانى ، بل وفى عصرنا الحالى وما يشيع فيه من أساليب تفكير ومناهج سير ؟ يقول ابن حبان :

" أما بعد .. فإن الزمان قد تبين للعاقل تغيره ، ولاح للبيت تبدله فنبغ فيه أقوام يدعون التمكن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم وترك ما يوجبه نفس العقل بهجسات قلوبهم . جعلوا أساس العقل الذى يعقدون عليه عند المعضلات : النفاق والمداهنة ، وفروعه عند ورود النائبات ، حسن اللباس والفصاحة ، وزعموا أن من أحكم هذه الأشياء الأربع ، فهو العاقل الذى يجب الاقتداء به ، ومن تخلف عن أحكامها ، فهو الأنوك ( الأحمق ) الذى يجب الازورار عنه " .

ذلـــك هـــو المرض الذى أفزع ابن حبان : النفاق والمداهنة ، وكلاهما بطبيعة الحال يفتقدان شروط التعقل ، وما لا يقل عنهما خطورة ، وأن يكسبا لباسا يغر العذج والبسطاء من الناس .. حسن اللباس والفصاحة .. المظهر واللفظية .

مـــن أجـــل ذلك كان لابد من إشهار سلاح التزييف فى وجه اللاعقليين من المنافقين والمداهنين من أصحاب اللفظية والشكلية الخاوية .

**ما العقل ؟**

ونحـــن وإن كـــنا لا نمـــيل إلى عقد المقارنات بين علمائنا الأقدمين ، وعلماء الغرب المحدثـــين ، إلا أنـــنا لا نستطيع وقف ذلك التداعى الفورى لآراء المدرسة السلوكية ، وكذلك الفلســـفة البرجماتية وخاصة عند ( جون ديوى ) ، عندما نقرأ هذا التعريف الذى يقدمه عالمنا العظـــيم ، فهو يصفه – أى العقل – بأنه : " اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ " .

وهـــذا الـــنوع من المعرفة ليس الناس فيه سواء ، فله مستويات ودرجات أربع ، فإذا كان المرء فى أول درجاتها ، سمى أديبا ، وفى الثانية أريبا ، والثالثة : لبيبا ، وفى الرابعة : عـــاقلا . وإذا أردنـــا تشـــبيها بمصـــطلحات ومستويات عصرنا الحاضر ، فسوف نجد على التوالـــى : المـــتعلم ، والباحث ، والعالم ، والمفكر . كما أن الرجل إذا دخل فى أول الدهاء ، قيل له : شيطان ، فإذا عتا فى الطغيان ، قيل : مارد ، فإذا زاد على ذلك قيل : عبقرى ، فإذا جمع إلى خبثه شدة شر ، قيل : عفريت .

وكذلك الجاهل : يقال فى أول درجته : المائق ، ثم الرقيع ، ثم الأنوك ، ثم الأحمق .

ويفرق ابن حبان بين ما هو فطرى وما هو مكتسب بالنسبة للعقل ، ذلك القدر المعبر عن القدرات والاستعدادات الفطرية ، وما يحدث لهذه القدرات والاستعدادات من نمو نتيجة ما تتعرض له من مؤثرات البيئة والتربية ، وهو يعبر عن هذه المعانى بلفظه ، قائلا :

" العقـــل نوعان : مطبوع ومسموع ، فالمطبوع منهما كالأرض ، والمسموع كالبذر والمـــاء ، ولا ســـبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول ، دون أن يرد عليه العقل المســـموع ، فينـــبهه مـــن رقدتـــه ، ويطلقه من مكانه ، ويستخرج البذر والماء ما فى قعور الأرض من كثرة الربع .

فالعقـل الطبيعـى من باطن الإنسان بموضوع عروق الشجرة من الأرض ، والعقل المسموع من ظاهره ، كتدلى ثمرة الشجرة من فروعها " .

وفى ذلك يقول محمد بن اسحاق بن حبيب الواسطى :

رأيت العقل نوعين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

فلـيس المهم إذن مقدار ما يملك المرء من استعدادات وقدرات عقلية فقط ، وإنما لابد مـن استثمار هذه الاستعدادات والقدرات .. إنها مثل أى مصدر من مصادر الثروة ، لابد لها مـن ( تشـغيل ) .. لابد أن تسير فى دورتها ، وكلما تسارعت دورتها ، كلما جاءت بالعائد المطلوب ، بل وبأكثر مما هو مطلوب .

وليس من المتصور بطبيعة الحال أن يتم ذلك ( آليا ) وإنما لابد من الفعل القصدى .. لابد من إثراء البيئة المحيطة بالإنسان إثراء ثقافيا يفتح أفاق التعلم والتعليم ، فذلك من شأنه أن يتـيح للعقـل فرصـته للعمل ، وفرصة النمو . والأعم من هذا وذاك ، أن نتيقن من أن هذا الثراء الثقافى لن تكون له فاعلية إذا عاش جوا خانقا من قيود الرأى .

والعـدو اللـدود للعقل هو ( الهوى ) ، ومن ثم فإن من واجب المرء أن يسير معهما بمنهجـين مختلفـين : فمـا هـو مطلوب للعقل ، يسرع فى تلبيته ، وما هو مطلوب لإشباع الهـوى ، يسوف فى تلبيته ، وذلك أن مثل هذا الأسلوب من شأنه أن يتيح للعقل نموا أسرع من نمو الهوى ، وبذلك يزداد قوة وقدرة عليه ، فتستقيم حياة الإنسان .

## ضرورة العقل وأهميته :

ولكـى يبين ابن حبان فضل العقل وأهميته ، كان من الضرورى أن يستعين على ذلك بأحاديـث الرسول ﷺ ، لكن مشكلة مهمة واجهته ، ذلك أن الأحاديث التى أشاد فيها الرسول بفضـل العقـل ، قد رواها نفر من الرواة الذين لا يثق عالمنا الفاضل فيهم ، مثل : ابان ابن عـياش ، وسلمة بن وردان ، وعمير بن عمران ، وعلى بن زيد ، والحسن بن دينار ، وعباد بن كثير ، وميسرة بن عبد ربه ، وداود بن المحبر ، ومنصور بن صفر وذويهم .

لكـــنه يـــروى لنا حديثا ، لا تأتى فيه لفظة ( العقل ) ، لكن دراسته وتحليله تؤكد أنه يحـــتوى علـــى المعانـــى المرادة من هذه الكلمة . أما الحديث ، فهو : " أن الله يحب مكارم الأخـــلاق ويكره سفسافها " ، فهنا نجد أن محبة المرء المكارم من الأخلاق وكراهته لسفسافها هـــو نفس العقل " فالعقل به الحظ ، ويؤنس الغربة ، وينفى الفاقة ، ولا مال أفضل منه ، ولا يقم دين أحد حتى يتم عقله " .

ولا ندرى حقا لماذا لم يستعن ابن حبان بآيات القرآن الكريم ، وهى أكثر من أن يتسع لهـــا هذا المقال ، تنبيها إلى ضرورة التعقل والتفكر والتدبر والعلم والفقه .. إلى غير ذلك من مـــرادفات ووظائـــف يســـتطيع القارئ أن يقرأ عنها المزيد فى كتيب للدكتور أحمد الحوفى ( القـــرآن والتفكيـــر ) ، وكتاب عباس محمود العقاد ( التفكير فريضة إسلامية ) ، وكتابينا : ( أصول التربية الإسلامية ) و ( دراسات فى التربية الإسلامية ) .

ويمـــوق ابـــن حبان أقوال كثيرين ورواياتهم عن فضل العقل وضرورته ، فمن ذلك قول أحد الشعراء :

| | |
|---|---|
| وأفضل قسم الله للمرء عقله | فليس من الخيرات شئ يقاربه |
| إذا أكمل الرحمن للمرء عقله | فقد كملت أخلاقه ومآربه |
| يعيش الفتى فى الناس بالعقل أنه | على العقل يجرى علمه وتجاربه |

وقيل لابن المبارك " ما خير ما أعطى الرجل ؟ قال : عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال أدب حســـن . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخ صالح يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل " !!

وروى عن أحد الشعراء :

| | |
|---|---|
| يزين الفتى فى الناس صحة عقله | وإن كان محظورا عليه مكاسبه |
| يشين الفتى فى الناس خفة عقله | وإن كرمت أعراقه ومناسبه |

ويعقـــب ابن حبان على ذلك بأن على المرء بناء على هذا : " أن يكون بما أحيا عقله مـــن الحكمـــة أكلـــف – أى أشـــد حبا – منه بما أحيا جسده من القوت ، لأن قوت الأجساد المطـــاعم ، وقوت العقل ، الحكم ، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب ، فكذلك العقول ، إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت " .

ولعـــل ما يشير إلى ذلك التلازم الأساسى بين العقل والشريعة ، وما روى عن الحسن بـــن أبـــى الحسن البصرى قوله " ما تم دين عبد قط حتى يتم عقله " . ولا غرابة فى ذلك ، فـــبالعقل يفهـــم الإنســـان مـــبادئ الدين وقواعد الشريعة ، وبالعقل يذود عنها ضد الملحدين والمنكرين ، وبالعقل يعقل التكاليف وعلى تركها يحاسب .

وذكـــر معاويـــة بـــن قرة : " إن القوم ليحجون ويعتمرون ، ويجاهدون ويصلون ، ويصومون ، وما يعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم " .

وإذا كـــان العقـــل بهـــذه الدرجة من اللزوم للشرع والدين ، فإن الدين أساسى كذلك العقـــل ، ومن هنا قال حفص بن حميد الأكّاف : " العاقل لا يغبن ( بفتح الباء ) ، والورع لا يغـــبن ( بكسر الباء) " . ويعلق ابن حبان على تلك العبارة بقوله : هذه لفظة جامعة ، تشتمل علـــى معان شتى ، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا السرور بغيـــر أمن ، وكذلك لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عمل . وكما أن السرور تبع للأمن ، والقرابة تبع للمودة ، كذلك المروءات كلها تبع للعقل " .

**آفات العقل :**

وكما أن لكل شئ آفة ، فللعقل آفاته التى تعطل عمله وتشل قدرته ، من هذه الآفات : الغم والحزن ، إذ من شأن كل منهما أن ينثر ذرات رمال أمام العقل فتحول بينه وبين الرؤية الصحيحة ، ولذلك قال ابن حبان " من حسن عقله ، وقبح وجهه ، فقد افقد فضائل نفسه قبائح وجهه ، ومن حسن وجهه وقل عقله ، فقد أذهب محاسن وجهه نقائص نفسه ، فلا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدما " .

ومـــنها : الكبـــر ، والبلاء المردى ، والرخاء المفرط ، لأن البلايا إذا تكاثرت عليه أهلكت عقله واستنفذت قواه ، والرخاء أيضا إذا تكاثر فلربما أدى بصاحبه إلى البطر والكبر .

ومـــنها : العجب ، فهو صورة من صور الآفات العقلية القريبة من الكبر ، ومن هنا كـــان علـــى العاقل أن يوطن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشيرة السوء ، وجليس السوء .

ومما يشين العاقل أن يحب أن يسمى به ، لأن من عرف بالدهاء حذر ، ومن عقل العاقل ، عدم التغنى بعقله ، ذلك أن العقل كالبذر ، وإن خفى فى الأرض أياما ، فإنه لابد سيظهر فى وقت معلوم .

ومنها : القتال بغير عدة ، وعدة العقل : الحجة ، ومن ثم فإن الذى يخاصم بغير دليل والذى يصارع بغير حجة ، يضر عقله .

## تنمية العقل وتدريبه :

ولعلنا بعد هذا نكون بحاجة إلى ذلك الجهد الإيجابى الذى يمكن عن طريقه ، تنمية العقل وتدريبه حتى يستطيع أن يكون بالفعل أداة الإنسان المسلم فى تربية نفسه والمساهمة فى تطور مجتمعه :

- من أهم الواجبات فى هذا الشأن ، التريث ، والتريث ضد العجلة ، وهو يتبدى فى ضرورة عدم الإسراع بالإجابة قبل أن يتثبت الإنسان مما تقوم عليه من حجية ومن اشتمالها على الجوانب الضرورية التى يتطلبها السؤال .

- كذلك من المهم ألا يتعامل العاقل مع الآخرين بأسلوب ينضح بالاحتقار والازدراء لهم أيا كان موقعهم سواء فى أعلى السلم الإدارى والاجتماعى أو فى أسفله ، لأن من استحقر السلطان ، أفسد دنياه ، ومن استحقر الأتقياء ، أهلك دينه ، ومن استحقر الأخوان ، أفنى مروءته ، ومن استحقر العام ، أذهب صيانته " .

وطريق إصلاح الخطأ ، يكون بالكشف عنه حتى ولو كان هذا الخطأ لدينا نحن ، ومن ثم فلابد من كشف العيوب الخاصة ومواجهتها " لأن من خفى عليه عيب نفسه ، خفيت عليه محاسن غيره ، وأن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه ، لأنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه ، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها " ، فكأن إحدى مميزات المكاشفة ومواجهة العيوب الخاصة ، إتاحة الفرصة للوقوف على محاسن الآخرين .

- والخبرة هى معين التعقل الذى لا ينضب ، وهناك من فلاسفة التربية المحدثين من أقام فلسفته وطرقه فى التعليم كلها على ( الخبرة ) ، وإمام هذا الاتجاه ، هو الفيلسوف الأمريكى المعروف ( جون ديوى ) المتوفى عام ١٩٥٢ .

واللفـظ الذى يعبر به ابن حبان عن ( الخبرة ) هو ( التجربة ) ، فهو لا يعنى بها ما نعنـيه نحـن اليوم فى معامل البحث وطرق التفكير العلمى ، وهو يستعين بقول المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

الم تر أن العقل زين لأهله وأن كمال العقل طول التجارب
وقد وعظ الماضى من الدهر ذا النهى ويزداد فى أيامه بالتجارب

بـل لقـد استخدم ابن حبان لفظ ( الخبرة ) نفسه وإن جعلها وعاء للتجارب فقال " إن المرء لا يكون مصيبا فى تناول الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب " .

والخبـرة فـى مسيرتها منذ الطفولة حتى الكهولة تمر بمراحل ومستويات ومراتب " والعاقـل يكـون حسـن المآخذ فى صغره ، صحيح الاعتبار فى صباه ، حسن عند إدراكه ، رضى الشمائل فى شبابه ، ذا الرأى الحر والحزم فى كهولته .. " .

كذلك يستخدم ابن حبان معنى آخر للخبرة فيؤكد أنه " لا ينفع العقل إلا بالاستعمال " .

- ومكـارم الأخلاق سمة أساسية لمن أراد أن يوصف بالتعقل والحكمة : وقد حاول على بن محمد التامى أن يجمع عددا مهما من هذه المكارم فى شعر جاء فيه :

إن المكارم أبواب مصنفة فالعقل أولها والصمت ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والصدق سادسها
والصبر سابعها والشكر ثامنها واللين تاسعها والصدق عاشرها

- ولا يعنـى ما أشرنا إليه من قبل من نقد ابن حبان لما شاع فى عصره من التكلف فـى المظهـر ، وأن ذلك علامة من علامات اللاعقلية ، أنه يقف ضد ( المظهر الحسن ) ، كـلا ، إن نقـده ينصـب على من يكون الحسن ستارا يخفى به خفة فى العقل وطيشا ورياء ونفاقا. أما إذا كان الإنسان راجح العقل ، نهما للمعرفة ، مقبلا عليها ، كريم الأخلاق ، فلابد أن يكمـل ذلك بأن يتزيا زيا حسنا يجعله مقبولا من الناس غير منفر ، يقول " والواجب على العاقـل أن يكـون حسن السمت طويل الصمت ، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء ، كما أن سوء السمت من شيم الأشقياء " .

- وحقـا ، فلقـد صدق من قال أن المرء بقرينه يقرن ، فنوعية الأصدقاء والزملاء المحيطين بالإنسان لها دور مهم فى التأثير على تربيته وتنشئته ، ومن هنا كانت استعانة ابن

حبان بقول أحدهم : " عقولنا قليلة ، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلا منا ، ذهب القليل ، وإنى لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل منه عقلا فأمقته " .

فكـــأن مجالســـة الأميـــين والفارغـــين مـــن الثقافة غير مطلوبة دائما ، وأن كل من الضـــرورى ألا يعنـــى ذلـــك ( المقاطعة ) و ( المخاصمة ) و ( التعالى ) على مثل هؤلاء الـــناس ، وإنما المقصود هو تقليل ( المخالطة ) و ( المعاشرة ) ، فالفكر بحاجة إلى التحدى والإثارة ، ومما يساعد الإنسان على ذلك أن يجالس من هم أكثر منه ثقافة وعقلا . ويقول أحد الثقاة : " جالسوا الألباء : أصدقاء كانوا أم أعداء ، فإن العقول تلقح العقول " .

وبعد ...

ليســـت هـــذه هـــى نهايـــة الطـــريق .. ذلك أن سالك طريق العقل لابد أن تطول به المســـيرة .. ولكـــن للصـــفحات حدود .. وللقلم طاقة ، ومازالت هناك علامات على الطريق وخطوات تلو خطوات ..